العنف في المجتمعات الإسلامية

عزيزة السيبيني
صحافية – سورية

قبل أن نتحدث عن صورة العنف الواقع على المرأة في المجتمعات الإسلامية لا بد لنا من الحديث عن العنف كظاهرة عامة ضد النساء تحديداً، وعلى ضوء مقررات مؤتمر بكين فإن العنف مرتبط بنوع الجنس، ويؤدي إلى وقوع ضرر جسدي أو جنسي أو نفسي ويمكن تقسيمه ضمن إطار المجتمع إلى:

1. العنف الجسدي والنفسي الذي يحدث ضمن إطار العائلة، مشتملاً على الضرب والإساءة الجنسية للأطفال وخصوصاً الفتيات، العنف المرتبط بالبائنة، الإغتصاب بين الأزواج، التشويه التناسلي، وممارسات تقليدية أخرى ضارة بالمرأة، وأيضاً، هناك العنف من قبل الذكور (غير الزوج) والعنف المرتبط بالإستغلال الإقتصادي.
2. العنف الجسدي والجنسي والنفسي في إطار الجماعة العامة، مشتملاً على الإغتصاب والإساءة الجنسية والتحرش الجنسي والتخويف في العمل والجامعة...إلخ.
3. العنف الجسدي والجنسي والنفسي الذي ترتكبه الدولة أو تتغاضى عنه، أينما وجد.

وهناك أفعال عنف أخرى ضد المرأة متمثلة في إنتهاكات حقوق المرأة في أوقات النزاعات المسلحة، كالحروب حيث تتعرض المرأة إلى القتل العمد، والإغتصاب المنظم، والعبودية الجنسية والحمل القسري، وهذا ما حصل أخيراً في كوسفو والبوسنة والهرسك.

والسؤال الذي بإمكاننا أن نطرحه ولا نحير في إيجاد الجواب له. وهو لماذا المرأة هدف سهل للعنف؟ والجواب يكمن في أن الإساءة إلى النساء والفتيات، لا تعتبر عنفاً في العديد من الثقافات. حيث ان الرجال في تلك الثقافات، عادة ما يسيطرون على صناعة المعرفة وتشكيل التعبيرات العاطفية والقيم، بل حتى الحقائق التي تبرز اقتراف العنف ضد النساء كملمح طبيعي من ملامح الحياة. لأن النساء تفتقدن السلطة التي تؤثر في رسم السياسة على المستويات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية. لذلك فالعنف ضد المرأة أحد مظاهر علاقات القوى غير المتساوية تاريخياً بين الرجل والمرأة. وعلى كل حال يمكننا تقسيم العنف الواقع على المرأة: إلى العنف الجسدي، والعنف النفسي، والعنف اللغوي، والعنف الأخطر هو العنف الواقع على المرأة من المرأة.

العنف الجسدي: هناك أمثلة كثيرة ومتعددة حول ظاهرة العنف الجسدي الذي تتعرض له المرأة في مختلف البيئات والأقاليم ففي الصين مثلاً كانت المرأة تعاني في مطلع هذا القرن من إثقال قدميها بقوالب حديدية تحد من نمو التقدم نتيجة الإعتقاد السائد آنذاك أن قدمي المرأة يجب أن يكونا بحجم صغير لأن هذا دليل أنوثتها. كذلك الأمر بالنسبة للهند حيث برزت ظاهرة إحراق العروس التي لا تأتي بمهر يرضي العريس وعائلته. كما وتتعرض الكثير من النساء وفي مجتمعات مختلفة للموت تحت شعار الشرف وهو ما يسمى بجريمة الشرف التي تستخدم كغطاء لتنفيذ حكم الإعدام ضد النساء لأسباب كيدية بعيدة كل البعد عن الشرف. ولو استطردنا في هذا الموضوع لوجدنا أن كمية العنف الذي تتعرض له المرأة مذهلة رغم أن عدداً غير قليل من

النساء لا يزال يخفي آثار الكدمات ويتظاهر أنها نجمت عن أسباب مختلفة وذلك خشية الفضيحة الإجتماعية أو فقدان المكانة وإحترام الآخرين.

العنف اللغوي: ربما يكون العنف اللغوي أقسى من العنف الجسدي فالمرأة التي تسمع وباستمرار من زوجها كلمات "يا غبية" أو "يا حمارة" تصل إلى مرحلة تفقد فيها ثقتها بنفسها، و أولادها كذلك يفقدون الثقة بها ويقل احترامهم لها. فكيف يمكن لهذه المرأة أن تبني أسرة وأن تفرض احترامها على أولادها إن أفقدها زوجها احترامها لنفسها.

العنف النفسي: وهو العنف الذي يمارسه الرجال من خلال الصمت المرعب أو من خلال الإبتزاز والتهديد المبطن بحيث يصبح مجرد وجود الرجل في حياة المرأة أمراً مربكاً لا تتمكن المرأة أن تتصرف بشكل طبيعي وعادي. ومعاناة المرأة النفسية لا تستطيع أي لغة أن تعبر عنها وتشير الأبحاث والدراسات حول موضوع العنف النفسي أن معظم المعنفات نفسياً يلجأن إلى الإنتحار باعتباره الحل النهائي لأنهه برأيهن لا يوجد حل جذري وواضح للقضاء على الشرخ الحاصل بينهن وبين أقرب الناس لهن.

العنف الواقع على المرأة من المرأة: يجب عدم التجاهل بخصوص هذا الموضوع لأنه يندرج في إطارين على غاية كبيرة من الأهمية أولهما ممارسة عنف الأم تجاه ابنتها، وثانيهما ممارسة العنف ضد العاملات المنزليات. وأرى أنه لا مجال للتوسع في هذا الموضوع لأنه يتطلب بحثاً مستفيضاً ووقتاً طويلاً. وباختصار نجد أن بعض الأمهات اللواتي خضعن لزواج قسري أخضعن بناتهن بدورهن للنوع نفسه من الزواج. كذلك فإن العاملات المنزليات يتعرضن للضرب والإغتصاب والتشويه الجسدي أحياناً ولا يوجد نقابة أو منظمة تحمي حقوقهن.

العنف في المجتمعات الإسلامية: إن المجتمعات الإسلامية ليست متجانسة، كما أنه ليس كل المسلمين يعيشون في ظل القوانين نفسها، فهناك ما يزيد عن نصف بليون إمرأة في العالم الإسلامي يعيشون في ظل أحوال مناخية واقتصاديات وثقافات وبلدان ونظم سياسية واسعة الإختلاف. وهنا يبرز النزاع مع الحداثة. حيث تتنافس مجموعة من القيم والقوى لكسب ولاء المرأة وتشدها إلى طرق متناقضة للنظر إلى نفسها وغلى العالم، والمشكلة الأكثر إرهاقاً التي تواجهها العديد من المسلمات مع فجر الألفية الجديدة، هي كيفية حل التناقض بين ضروريات الحياة في العالم المعاصر والمتطلبات التي يقدمها المدافعون التقليديون عن وجهات النظر العالمية. ويقع في قلب هذا النزاع معضلة حقوق المرأة المسلمة من منظور حقوق الإنسان. إن المرأة المسلمة تتمزق بين الأكيد بأن الإسلام قد أعطى للمرأة بالفعل حقوقها وبين رغبتها في ان تحصل على نفس حقوق الإنسان التي وعدت بها كل النساء.

السمات المشتركة في المجتمعات الإسلامية التي تدعم العنف ضد المرأة:

1. *الدين*: يعتبر القرآن الكريم وسنة رسول الله (ص) هي المرجع الأساسي في كثير من قوانين الأحوال الشخصية في المجتمعات الإسلامية، وإن هذا الدين قد أعطي للمرأة كامل حقوقها الشرعية والمدنية وهذا رأي بخلاف دراسات كثيرة وأبحاث عديدة أكدت عكس ذلك و أنا أرى أن الخطأ ليس بالنص القرآني أو الحديث الشريف وإنما الخطأ في التفسير والشرح وصياغة القانون وكيف لا والقائمين

على التشريع هم من الذكور!! ومن الأمور التي كرسها المشرعون لتأكيد دونية المرأة في المجتمعات الإسلامية:

أ. **تعدد الزوجات**: يختلف الكثير من العلماء حول مسألة تعدد الزوجات فالبعض يعتبر بأنه ليس للدين أي أثر في تعدد الزوجات وإنمل هي سيئة من سيئات الجاهلية التي تركت أثراً واضحاً في الشريعة. والبعض الآخر يرى أن الدين قد حلل تعدد الزوجات ولا يجوز لنا تحريم ما أحله الدين. وهذه المسألة فيها الكثير من الإجتهادات ما بين مؤيد ومعارضوهي أحد مظاهر العنف المسلط على النساء ومن أكثر الأمور التي تعرض كرامة المرأة للإهانة.

ب. **الزواج المبكر**: لم يأت نص واضح وصريح في الدين الإسلامي يحدد سن الزواج، بل ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه، فكان أن اتفق الفقهاء على جعل سن البلوغ الجسماني هو المقياس للزواج، والأخلاق النبيلة التي يتمتع بها كلا الطرفين، فالإسلام يحض على أن يفتش المسلمة والمسلم عند الزواج عن الآخر المؤمن إيماناً قلبياً وعملياً وقال عز وجل [ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم]1 هذا في اختيار الزوجة، أما في اختيار الزوج [ولعبد مؤمن خير من مشركة ولو أعجبتكم]2 فمسألة السن لم تكن لها أي ذكر في القرآن، وإنما الإيمان فقط هو أساس الإرتباط. وتبقى قضية الزواج المبكر مظهراً قاسياً من مظاهر العنف المسلط على الفتيات من حيث حرمانهن من فرص التعلم والتدريب والعمل واختيار أدوارهن في الحياة، وإمكانية العيش الحر الكريم دون الإعتماد على الغير.

ج. **الطلاق**: على الرغم من أن الحق في الطلاق هو حق للذكر والأنثى وأكدت عليه النصوصو الدينية إلا أن التفسيرات تغرق في إعطاء هذا الحق للذكر دون الأنثى ولأي سبب كان. [إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن]3 أي إذا أردتم الطلاق ضمن قانون الطلاق القرءني النبوي وشروطه، والتي منها أن تكون الزوجة على طهر، ولم يطئها فيه لئلا تكون حاملاً، وأن ينتظر طهرها ثم يطلقها، وذلك بعد تحكيم حكمين من أهله وأهلها، وبعد أن تكون الحياة الزوجية بينهما قد استحالت. ولكن الإسلام يفرض على الزوجين أن يكونا على قدر من الثقافة الزوجية الإسلامية، من حقوق لهما وواجبات عليهما، وليكونا من المؤمنين الذين وصفهم الله بقوله [بعضهم أولياء بعض]4 أي أنصار بعض وأحباب بعض. أما من يحاف بالطلاق لأمور تافهة، فهذا الإنسان لا يحترم قدسية الزواج. وقد جعل هذا الحق للرجل فقط دون المرأة. أما المرأة التي ترغب بالحصول على الطلاق فعليها أن تتنازل عن كافة حقوقها الشرعية والمدنية، بل من الممكن في بعض الحالات أن تدفع من جيبها أو تتنازل عن بعض ممتلكاتها وهو ما سمي مؤخراً "طلاق الخلع" التذي يبيح للمرأة القادرة أن تفتدي نفسها بالتنازل عن حقوقها ومن لا تقدر فعليها الإنتظار. أليس هذا عنف بحد ذاته، عنف على المرأة بشكل عام، وعنف مضاعف على المرأة غير القادرة على افتداء نفسها؟ وليت هذا العنف ينتهي بالطلاق، وإنما تتعرض فيما بعد لعنف أقسى وأكبر وهو العنف الإجتماعي...؟

العادات والتقاليد: تشترك المجتمعات العربية بمنظومة واسعة من العادات والتقاليد تم التعبير عنها في خطاب شعبي واسع النطاق حدد الصورة النمطية لكل من الرجل والمرأة، وحتى يتم الحفاظ على هذه القيم فقد صيغت على شكل أمثال شعبية، وأقوال متداولة تتوارثها الأجيال، وهذه الحكم والأمثال الشعبية تختلف من مجتمع إلى آخر في اللفظ وهذا عائد إلى إختلاف اللهجات، ولكنها جميعاً تصب في مضمون واحد، ويمكنني أن أذكر على سبيل المثال أنه عندما يتم الحمل عند المرأة ويُعرف جنس الجنين تقوم المرأة بشراء حاجيات الجنين حسب جنسه، فاللون الأزرق للصبيان، واللون الزهري للبنات. كذلك عندما تلد الأم، فإن كان المولود ذكراً يقال لها "مبارك ما إيجاكي"، وإن كانت بنتاً يقال لها "الحمد لله على سلامتك"، أمل في الأمثال الشعبية:

- هم البنات للممات
- تربية امرأة
- الرجل رحمة ولو كان فحمة
- عريس من خيطان ولا حكي الجيران
- زواج البنت سترة

وغيرها كثير، طبعاً نحن ندرك مقدار العنف الذي تسببه هذه القيم، فالمرأة تستحق الضرب وباستمرار، والمرأة عالة على أسرتها والمجتمع، وهي غير قادرة على التربية في حال وفاة زوجها مثلاً. هذا الموروث الإجتماعي يحقق دونية المرأة ويكرسها، ورغم التطور الفكري والإجتماعي التي وصلت إليه المرأة إلا أنها لم تستطع تجاوز هذا الموروث وذلك لأن العقلية الرجعية (إن جاز لنا التعبير) التي ما زال معظم رجالنا يسيرون بها ويؤمنون بها هي التي تتحكم بهم، أضف إلى أن القوانين المدنية المعمول بها حالياً لا تواكب مسيرة التطور والتقدم الذي وصلت إليهما المرأة.

المناهج المدرسية: تكاد تكون المناهج المدرسية في كافة الدول العربية واحدة، وخصوصاً في تناولها موضوع الجندر، فالدول العربية جميعاً تكاد تعيش في واقع واحد من العادات والتقاليد، والمناهج، نجد هناك بعض الإختلافات ولكنها لا تذكر، فما زالت المناهج الدراسية التي تدرس في المرحلة الإبتدائية تقول: "بابا يذهب إلى العمل. وماما تطبخ" وكأن العمل هو للرجل وحده، والمطبخ للمرأة وحدها، فنحن بحاجة إلى إعادة نظر في المناهج الدراسية التي تؤكد دونية المرأة، بعد أن سارت الكثير من الدول العربية في موضوع أنسنة التعليم.

دور ووسائل الإعلام: ربما يكون العبء الأكبر في هذا الموضوع يقع على كاهل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة. ولكن للأسف نجد أن هذه الوسائل وفي معظم الدول العربية عاجزة عن الحديث عن المرأة كما هو دون تزييف، فهي تصور المرأة العربية وكأنها نالت كافة حقوقها الإجتماعية والمدنية في البرامج الإيجابية. أما صورة المرأة العربية في غير ذلك من البرامج والأعمال الدرامية فهي العاهرة، والمومس، وزوجة الأب، وتصورها بأنه السبب في جميع الجرائم والسلبيات التي ترتكب في المجتمع. نحن بحاجة إلى إعلام حقيقي يبرز صورة المرأة العربية العاملة التي تقضي معظم وقتها

خارج المنزل لتعود إلى الإهتمام بالأولاد وتدريسهم وتأمين مطالبهم، نحن بحاجة إلى إعلام يبرز صورة المرأة المناضلة ضد الإستعمار عبر المراحل التاريخية الطويلة، وتاريخنا العربي يشهد على ذلك. ولكن للأسف إعلامنا يكرس ظاهرة العنف ضد المرأة بمختلف وسائله سواء في الصحف والمجلات، أو البرامج التلفزيونية، أو المسلسلات الدرامية والأفلام السينمائية، نحن نريد إنقلاباً جذريا في الإعلام العربي لنظهر صورة المرأة العربية الحقيقية بإيجابياتها وسلبياتها لنأخذ الجيد ونطوره، ونأخذ السلبي ونصححه.

وهكذا يمكن لنا القول أن العنف المسلط على النساء موجود في مجتمعنا كما في المجتمعات الأخرى ولا يوجد أحد لا يعرف إمرأة أو اثنتين تعرضتا في حياتهما للعنف الجسدي أو النفسي أو اللغوي. واليوم نحن بحاجة إلى دراسة هذه المظاهر ومدى انتشارها ومن ثم تحديد الأسباب لإيجاد السبل التي تساعد على التخلص منها والقضاء عليها، وأول شرط واجب تحقيقه هو خلق وعي لدى النساء يمكنهن من التمتع باحترام الذات والثقة بالنفس لأنهما السبيل الوحيد لتجاوز العقبات التي تقف في طريقهن، وإيجاد منظمات نسائية ترعى حقوقهن وتقف إلى جانبهن في حال تعرضت إحداهن لأي نوع من أنواع العنف.